

كتب بالعبرية

”دلعات أحد المواقع في لبنان“: من قصص الحرب المنسية

موتي فريدمان

إسرائيل: كينيرت، زمورا - بيتان، ديفير ٢٠١٧. ٢٠٧ صفحات.

لبنان الأولى في سنة ١٩٨٢ هي حرب منسية في وعي الإسرائيليين، ولم يُكتب كثير عنها بخلاف حرب ”لبنان الثانية“ في سنة ٢٠٠٦. لا يدعي الكاتب أن عمله سيملاً هذا الفراغ، لكنه يعيد طرح الأسئلة الأساسية من جديد من خلال شهادة شخصية تعكس، بأسلوب واقعي مشحون بمشاعر قوية هي مزيج من السخرية واليأس، تجربة جيل من الشباب الإسرائيلي الذي ما إن أنهى دراسته الثانوية حتى وجد نفسه فجأة في غمار حرب عبثية، يفرق في ”المستنقع اللبناني“ ويخوض مواجهة غير متناظرة مع عدو خفي. إن المواجهة التي خاضها الجنود الإسرائيليون ضد مقاتلي حزب الله في الجنوب اللبناني تشبه في رأي فريدمان، وإلى حد بعيد، التجربة التي عاشها الجنود الأميركيون بعد غزوه العراق في سنة ٢٠٠٣، مثل

العسكرية في الجنوب اللبناني في موقع دلعات، والتي غيرت حياته بصورة جذرية، وزعزعت تصالحه مع نفسه. لكن الكتاب هو أيضاً وسيلة لفهم التأثيرات العميقة التي كانت لهذه التجربة في المجتمع الإسرائيلي، يقول: ”لا يمكن فهم إسرائيل كما هي عليه اليوم من دون فهم تجربة الحزام الأمني في الجنوب اللبناني التي غيرت العلاقة بالجيش وبالدولة وبالبيئة التي تحيط بنا“ (ص ٤). وبين الأسباب الكثيرة التي دفعت موتي فريدمان إلى العودة إلى إثارة مسألة الاحتلال الإسرائيلي للجنوب اللبناني والكتابة عنها من جديد، شعوره بأن حرب

هذا الكتاب رواية واقعية تصور تجربة مجموعة من الجنود الإسرائيليين قاموا بخدمتهم العسكرية في موقع دلعات، الاسم العبري لموقع الدبشة الواقع على بعد أمتار قليلة من قلعة الشقيف في الجنوب اللبناني في منطقة الحزام الأمني الذي أقامته إسرائيل في سنة ١٩٨٥، والذي تم تفكيكه خلال انسحابها الشامل من الجنوب اللبناني في أيار/مايو ٢٠٠٠. يعترف موتي فريدمان في مقدمة كتابه الذي اعتمد لدى إعداداه على عدد كبير من الوثائق والمنشورات، بأن كتابه محاولة شخصية متأخرة لفهم التجربة التي عاشها لدى قيامه بخدمته

عليه لبعض الوقت، وغرزت علم الحزب في قمة التلة التي يقوم عليها. واشتهر الموقع بعد ذلك بحادثة العلم، وتعرّض جنود الموقع من لواء غفعاتي للسخرية والانتقاد بسبب ما حدث. في الفصل الأول يصف آفي ليالي الحراسة الطويلة، قائلاً: "هبط الليل على الجبل، ليل ثقيل ملبّد بالضباب الذي تجمّع في قمة الجبل. الوقت له في هذا المكان وتيرته الخاصة. خمس دقائق حراسة تساوي ساعة، والساعة تساوي يوماً، وفي هذا المكان تبدو ساعات الحراسة لا نهاية لها. العدو لا نراه لكننا نشعر به، وهو خبير بزرع العبوات الناسفة، وبإطلاق النار بصورة فجائية، وبإطلاق الصواريخ على المواقع والدوريات" (ص ١١).

الجو في موقع دلعات زكوري بحث، لا مكان فيه للعنصر النسائي، أمّا الجنود فأغلبيتهم شبان في العشرين من عمرهم من دون تجربة فعلية، انتقلوا إلى الخدمة ما وراء الحدود فور الانتهاء من

عدو غير مرئي

نعثر في الكتاب على ثلاثة أصوات: صوت الكاتب نفسه؛ صوت أحد قادة موقع الدبشة واسمه آفي؛ وصوت امرأة عضو في حركة "الأمهات الأربع"، وهي حركة احتجاجية نشأت ضد احتلال إسرائيل الحزام الأمني، وطالبت بالانسحاب الفوري منه، وكانت نواتها من الأمهات الثكالي اللواتي فقدن أبناءهن في تلك الفترة (تجدد الإشارة إلى أنه طوال الفترة التي احتلت فيها إسرائيل الحزام الأمني، كان المعدل السنوي للقتلى من الجنود الإسرائيليين الذين سقطوا تحت ضربات المقاومة هو بين ٢٠ و ٢٢ قتيلًا).

لكن البطل الأساسي في هذا الكتاب هو موقع دلعات نفسه، الذي اكتسب شهرة كبيرة بين الإسرائيليين بسبب حادثة كان لها أثر كبير في نفوسهم، وجرت في ١٠/١٩٩٤، حين اقتحمت مجموعة من مقاتلي حزب الله الموقع، وسيطرت

العبوات الناسفة والسيارات المفخخة والعمليات الانتحارية. إن أعوام المواجهة العنيفة التي خاضها الجيش الإسرائيلي ضد حزب الله في الجنوب اللبناني كانت، في رأي فريدمان، وراء التحولات العميقة التي طرأت على موقف المجتمع الإسرائيلي من التضحية بحياة أولاده في حرب لا مبرر لها، وليس لها أهداف سياسية واضحة، ولا سيما بعد أن اتضح تهافت مقولة دور الحزام الأمني في الجنوب في الدفاع عن أمن المستوطنات الإسرائيلية في الشمال. كما أن هذه المواجهات أظهرت الحاجة إلى تطوير العقيدة القتالية للجيش الإسرائيلي لمواجهة هذا النوع من المعارك العسكرية غير المتناظرة، والتي من الصعب على الجيش الإسرائيلي تحقيق حسم عسكري واضح فيها، مثلما أظهرت ذلك بوضوح حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦ في لبنان.

تدريباتهم، لكن التدريب شيء، ومواجهة العدو على أرض الواقع شيء آخر. نراهم يصابون بالخوف والهلع عند تعرضهم لهجوم مفاجيء، ويرتدون ويترددون وينسون ما تعلموه في فترة تدريبهم، ومن شدة اضطرابهم يطلقون أحياناً النيران على بعضهم البعض.

تنتهي حياة أفي في الفصل الأول نهاية مأسوية إذ يلقى مصرعه في حادثة الاصطدام الشهيرة بين مروحيتين عسكريتين في شباط/فبراير ١٩٩٧، في أثناء عودته إلى الموقع قبل فترة قصيرة من إنهاء خدمته العسكرية. ويتوقف الكاتب عند الأهمية الكبيرة لهذه الحادثة قائلاً: "أتضح لاحقاً أن ليلة اصطدام المروحيتين في ٤ شباط/فبراير ١٩٩٧ كانت بداية النهاية. إنها اللحظة التي بدأ فيها الحزام الأمني ينهار تحت وطأة التناقضات، وبصورة أساسية نتيجة احتجاج مجموعة من الأمهات الغاضبات اللواتي تحركن ضد موت أبنائهن العبثي في الجنوب اللبناني"

(ص ٧٧). وبالنسبة إلى فريدمان، شكلت الحادثة منعطفاً بحيث بات يمكن الحديث عمّا قبل الحادثة وما بعدها، ليخلص إلى النتيجة المريرة التالية: "على الرغم من ضخامة الضربات التي تعرّضنا لها، فإن الضربة الأقسى كانت من صنع أيدينا" (ص ٧٨).

حركة "الأمهات الأربع"

يصور الكاتب في الفصل الثاني التأثير المتدرج والمتراكم لتحرك "الأمهات الأربع" الاحتجاجي غير السياسي، والذي كان هدفه فقط إخراج أبنائهن من لبنان. لقد تعرضت هذه الحركة لحملات عنيفة ضدها، واتّهمت "بالخيانة"، ونُعت أعضاؤها بأبشع الصفات.

يروى الكاتب قصة إحدى الأمهات التي كانت ضد حركة "الأمهات الأربع" إلى أن فقدت ابنها في الحزام الأمني وتحولت إلى ناشطة في صفوف الحركة. ويصور الكاتب كيف تغير

المزاج العام في إسرائيل نحو دعم موقف "الأمهات الأربع" المطالب بالانسحاب من لبنان.

وفي الواقع، فإن الانسحاب من الجنوب اللبناني كان شعار الحملة الانتخابية التي خاضها إيهود باراك في سنة ١٩٩٩، وبعد فوزه فيها حقق وعده بسحب الجنود الإسرائيليين من لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٠.

الفصل الثالث مخصص

لرواية تجربة موتي فريدمان في موقع دلعات الذي وصل إليه بعد عامين فقط من هجرته من كندا إلى إسرائيل في عمر الـ ١٧. يروي كيف كان قادة الموقع يحرصون قبل خروج الجنود في دورية على أخذ صورة لهم، مع إبقاء مسافة معينة تفصل بين كل جندي وآخر، وذلك كي يستطيعوا لاحقاً وضع دائرة حول رأس الجندي الذي يُقتل.

في هذا الفصل تصوير للمواجهات التي حدثت في الموقع، والتي كانت تتدهور دائماً بصورة دراماتيكية

ومواقف الكاتب التشكيكية ونظرته السوداء والعنصرية إلى الاحتلال الإسرائيلي للحزام الأمني، يذكر بفيلم آري فولمان "فالس مع بشير"، وهو فيلم من الصور المتحركة عن الاجتياح الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢، طرح قضية تورط الجيش الإسرائيلي في مجازر صبرا وشاتيلا.

الانطباع الأساسي الذي يخرج به قارئ الكتاب هو الصدمة العميقة التي حفرها رجال حزب الله في لبنان، في وعي الجندي الإسرائيلي، فالكتاب يصورهم في صورة مقاتلين يافعين لا يهابون الموت، وتحركهم عقيدة وإرادة حديدية، بينما يبدو الجنود الإسرائيليون من العمر نفسه وهم يخوضون مواجهة من دون إيمان فعلي بجدوى القتال الذي يخوضون بحياتهم من أجله.

ما يميز هذا الكتاب أيضاً أسلوبه، فعلى الرغم من الطابع التقريرية والتسجيلي الذي يقارب التغطية الصحافية، فإن لغة الكاتب جاءت متوثبة حيوية

اللبناني كسائح يحمل جواز سفر كندياً بحثاً عن إجابات، لكنه لم يعثر عليها. ويروي كيف رأى على مدخل نهر الخردلي يافطة لحزب الله تتحدث عن استشهاد بلال، أحد أعضاء المجموعة التي هاجمت في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٩٦ أفراد دورية إسرائيلية من دلعات، وقتلت خمسة وجرحت آخرين.

يقول الكاتب إن هذه الدورية هي نفسها الدورية التي خدم فيها آفي، وإن وصف العملية دقيق ومطابق للحقيقة، وإن من قتل بلال هو ضابط المجموعة بعد أن تردد أحد الجنود في إطلاق النار عليه خوفاً من أن يكون جندياً إسرائيلياً أوقع خوذته العسكرية عن طريق الخطأ.

فنظراً إلى أن مقاتلي الحزب كانوا يرتدون بزات عسكرية تشبه ما يرتديه الجنود الإسرائيليون، وهم من العمر نفسه، فإنه عند احتدام المعركة يصعب التمييز بين الشقيق والعدو، ولهذا، كانت الخوذة هي العلامة الفارقة.

يدخل كتاب فريدمان ضمن فئة كتب هجاء الحرب،

يفقد فيها الإسرائيليون السيطرة على الوضع، وكيف خسر الحزام الأمني دوره ووظيفته إلى حد جعل الكاتب يتساءل: "لم نعد نعرف هل نحن أبطال أم ضحايا" (ص ١٢٤).

العودة إلى الماضي

قد يكون الفصل الأخير من هذا الكتاب أكثر الفصول إثارة للفضول، ففيه يروي فريدمان قصة زيارته للبنان مرة أخرى في خريف سنة ٢٠٠٢، ولموقع دلعات من جديد، ويصف مشاعره عندما وقف أمام الموقع فيقول: "عندما وطأت قدمي الأرض تقدمت ببطء شديد، وعلى إحدى الصخور رأيت بقايا غرافيتي باللغة العبرية تقول: آرييه نريد دعوة إلى العرس. عندما عدت إلى دلعات اعتقدت أنني سأضع ورائي الحرب، وعدم الاستقرار كله الذي غرقت فيه حياتي وحياة الآخرين منذ ذلك الحين، لكن يبدو أنني كنت على خطأ".

زار فريدمان الجنوب

ومشوقه. يعترف فريدمان
بأنه كتب في البداية الكتاب
باللغة الإنجليزية، وأنه بعد

ذلك نقله إلى العبرية بعد
إدخال تغييرات عليه لأن
الكتاب في الأساس كان

يجب أن يُكتب بالعبرية.
مراجعة: رندة حيدر
باحثة في الشؤون الإسرائيلية

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سيرة جابي برامكي وتجربته في جامعة بيرزيت

(١٩٢٩ - ٢٠١٢)

عبد الرحيم الشيخ

٣٧٥ صفحة ١٢ دولاراً